الحركة التربوية فى مصر

للدكتور ستانلى جاكسون

ترجمة الأستاذ حسن حبشى

[دكتور ستانلى جاكسون — صاحب هذه المقالات — من رجال التربية والتعليم ، خبرها فى مصر وفى انجلترا من قبل ، وتتلمذ على يده كثيرون من مدرسى اليوم ، وهو ممن يؤمنون إيماناً عميقاً بتطور الحركة التربوية فى مصر وبأن للتعليم رسالة أكبر من التلقين هى الخلق والتكوين ، وهذه المقالات التى نترجمها على صفحات الرسالة قد انطوت على كثير من الآراء والنظرات الصائبة فيما يتعلق بالتعليم فى حاضره ومستقبله] .

حينما أقلب الطرف فى عناية دقيقة مستوعباً الحالة التعليمية ، الاحظ أمرين جوهريين فى التعليم المصرى هما علة ضعفه الكبرى ، أولاهما تلك الهوة الشاغرة بين المدارس والمعاهد ذات النظام الشرقى وبين زميلاتها الآخذات بالنمط الغربى ، فالرابطة بين هذين الضربين من المعاهد ضئيلة ، أو تكاد تكون معدومة ، فلقد جرى القائمون بشؤونها — عمداً أو صدفة — على اتباع سياسة الفصل والتفرقة بينهما ؛ أما مصدر الضعف الثانى فهو أن نوع التعليم المتبع فى كلتا المجموعتين أميل لأن يكون تعليما نقلياً صرفاً ، وفى حين آخر يعتمد على استيعاب الكتب ، فهو كان ولا يزال فى معظم نواحيه تعليما جافاً ، لا يرتكز على أسس إنسانية ، بل إنه ليعتمد على التلقين والإصغاء ، وقلما يأبه بالتفكير والإبداع ، أو بعبارة أخرى نستطيع القول بأنه يعنى بتكوين نماذج ، وفى كثير من بقاع العالم يتخلون عنه إيثاراً لتعليم أكثر حرية وأمس بالإنسان رحماً ، وهو تعليم يرى أن أهمية العناية بتنشئة الجسم والمواطف والخلق تكافىء العناية بتربية الذهن ، ولما للظاهرة اللغوية فى التربية من الأهمية فهى جديرة بأن تلقى من العناية العظمى ما أوتى معه أنها صادفته فى مدارس هذا البلد .

من المسائل التى تشغل مكانة عظمى فى تفكيرنا فى الوقت الحاضر مسألة التربية وتأثيراتها على الخلق وفى الأمور الاجتماعية ، وسأشير فى هذا المقال إلى ناحية واحدة فحسب ، هى أن حاجة مصر ستزداد فى أيامها المقبلة إلى القادة ، لاسيما وهى فى طريقها إلى النهوض وفى طموحها لأن تكون لها حياة قومية مستمدة من ذاتيتها ، ولست أعنى « بالقادة » أولئك الرجال العظام رمز الأهمية القومية ، بل أقصد نوعاً من القادة دون هؤلاء يتركز عملهم فى حمل المسئولية ، وفى إخراجهم إلى حيز الوجود خطط الإصلاح الملقاة على عاتقهم ، وأن جميع حركات الإصلاح العظمى — وهى الخطوات الرفيعة فى سبيل رفاهية الإنسانية — لتتوقف كثيراً على زعامة هذه الجماعات الصغيرة ، كما يقع الجانب العملى من هذه الزعامة إلى حد بعيد لا كلياً على أكتاف مدرسى الأمة ، وقد ظهر أن الأمم التى تفشل فى إيجاد عدد كاف من المدرسين والمدرسات الذين تتوفر فيهم الشخصية الأصيلة القوية ، والثقة والجرأة ، إنما هى أمم ترجع القهقرى ؛ وسواء أظهر هؤلاء القادة فى مصر أم لم يظهروا بعد ، إلا أن وجودهم يتوقف كثيراً على ماهية التربية فى البيت وفى المدرسة وفى الكلية ، فلو أن التعليم كان تعليماً إنسانياً من جميع نواحيه ، فسيح الآفاق ، لألفينا كثيرين من هذا الطراز ،

عِيْد بِعَيْدُوْن ، شَيْطِىْ ، مَنْتُوْىْ ، حَصِيْرَه ، كِرَمُّوْنْ ، بَاغَهْ ، حَابِسْ .

ملحوظة :

تطيب بعض الأسماك فى وقت ، ولا تستحسن فى الوقت الآخر . مثاله (البِتَرْنَاكْ) فانه يلذ طعمه فى فصل الخريف بحسب التوقيت العالمى كما يوافق فصل الشتاء بحسب التوقيت الحضرى ولهم فى هذا دليل كما يقول المقريزى .

أما (الفُوْد) فنى كل وقت فهى لذيذة الطعم .

وفى العَيْد — يعنى صغار السمك — يقول بعض أدباء الحضارمة فى المهجر هازلا :

من لى بوطء ثرى تلك البقاع إذا
ما جئت مستقبلا عودى إلى وطنى
هناك أنشد مسروراً ومفتخراً
(العَيْدُ والصَيد والأسماك تعرفنى)

(يتبع) على عبود العلوى

٢٢ ٢٧٠

ومع أن هذا الفريق من القادة لا يدعى الزعامة لنفسه ، إلا أنها تتوقف عليه . زد على ذلك أنه ميهات أن يظهر رجال من هذا الضرب إذا ظل التعليم تلقينياً محضاً ، لا يبعث على الاستزادة ، وكان محصوراً فى دائرة ضيقة من الأفكار .

ليس من شك فى توفر المادة اللازمة لتكوين الزعماء فى مصر ، لكن هل ترانا هيأنا ذلك النوع من التربية الذى يعبد السبيل لظهورهم ؟ وهل أعددنا هؤلاء إعداداً تاما لما سيلقى على أكتافهم ؟ إن للتربية الشرقية فوائدها الذاتية ، لكن يظهر أنها غير كفيلة تماما بإنماء الشخصية . ذلك أن آثارها سلبية أكثر منها إيجابية وعلى الرغم من أنها تبزّ الغربية فى نواحى التأمل ، إلا أنها أميل لإيثار التكرار والتقليد على الخلق والتجديد ، وسواء أكان هذا الفهم صوابا أم خطأ إلا أنه يلقى كثيراً من التأييد . وليس معنى ذلك أن البلدان الشرقية تعوزها الشخصيات البارزة العظيمة ، إذ الواقع أن الطبيعة تحافظ على أن تتغلب على ضيق تعليمنا المدرسى ومن ثم فإنها تمدنا — بين حين وآخر — برجال أكفاء شديدى المراس ، بيد أن قوتهم هذه قد ترتبط ارتباطا تاما بالنظرة العامة وبضيقها ، فلا يتسع المجال أمامهم ، ولا يكون لهم ثمت أثر عظيم ، ولما كانت تعوزهم الإحساسات الإنسانية الواسعة فإنهم يفشلون فى الزعامة الحقيقية ، ويكون فشلهم على الأخص فى اكتساب احترام الجيل الناشىء ، ذلك الاحترام الذى يتطلب على الدوام اتساع أفق التفكير عند رجال ذلك الجيل العظام ، كما يتطلب قياسا خاصا من الكفاءة فى معالجة المشكلات العامة ، ومن ثم فإنه إذا شئنا إيجاد زعماء كبار أو صغار احتجنا إلى نمط من التعليم الحر المرن ، وأعنى به ذلك الذى يبرز القوى المستترة والعبقريات الدفينة فى كل فرد على حدة أكثر مما أعنى به ذلك التعليم الذى يطبع الرجال جميعاً على غرار واحد ، ويهبط بمستوى الشخصية عند الفرد منهم ، وقد أثبتت المقارنة بين النمط التلقينى الصرف من التربية وبين النوع المرن على أن الضرب الأول يتمركز أثره قطعاً فى النتائج كما هو الحال فى الصين مثلا وليس الأمر مقصوراً على عون قوى العقل المبدعة من التقدم أو تمجيد الذاكرة أو إغفال التربية الجثمانية فحسب ، بل هناك ما يؤدى إلى هذه الناحية الخطيرة ألا وهو انعدام التربية الاجتماعية التى سأشير إليها فيما بعد ، إذ أن التربية أجل من أن تكون تلقينا بحتاً ، كما أن التعليم الحر يشمل اليوم كثيراً من نواحى النشاط داخل المدرسة وخارجها ، وحيثما يرى الشخص نفسه صالحة للحياة العامة وللاندماج فيها ، فهو يتعلم كيف يعامل الناس وكيف « يأخذ ويعطى » ، وكيف يكيف نفسه بما يتفق وحاجات الجماعة ، ويدرك أين يتحتم عليه تناسى أهوائه الشخصية وميهات أن يسلس قياد الإدارة للزعماء مالم يعرف الأتباع كيف يتبعون ، ومن ثم فإن مهارة روح الجماعة أو بعبارة أخرى القدرة على اتباع قائد لا تقل أهمية عن قوة القيادة نفسها ، بيد أنها لا تكتسب فى يوم ، ولا نستطيع القول بأنها لقيت فى نظم التعليم الشرقية ما تستأهله من العناية وما يجدر بها من الأهمية .

إذا أرشدنا إلى هذه العيوب فى تعليمنا ، فينبغى ألا ننسى أن بعضها موجود فى المدارس الغربية ، فالمتحذلقون يعوقون المربين فى كل مكان ، كما أن ضيق أفق الذهن لهو خطيئة المدرسين الكبرى فى جميع بقاع العالم ، فالمتطرف من المصلحين هو فى الغالب رجل ضيق الذهن لكنه مع ذلك رجل من نوع جديد ، ولقد ألف الشرق التحمس للآراء الغربية ، ومن ثم غدا أسير الجدة حتى لقد نبذ كل شىء شرقى وراءه ظهريا ، فعلى الرغم من أن الرجل ولد شرقيا إلا أنه أصبح يزدرى أساليب التفكير الشرقية وربما لج فى تطرفه فثار ثورة شديدة على عواطف شعبه ، وقد يسرف فيناصب أسرته العداء ، ومن حسن الحظ أن من على هذا المنوال قلة ضئيلة ، لكن الشىء الواضح هو تفكك هذه الأصول ، ذلك التفكك الذى قد يقوض الروابط القوية ، ويحطم اتساق الحياة وهذا يوضح لنا التأثير السيء لتيارين من الثقافة ليست ثمت وشيجة من الصلة توحد بينهما ، مما أدى إلى انجراف الشخصيات الضعيفة فى هذين التيارين اللذين تقاسماها ، وسارت فى طريق يؤدى بها فى النهاية لأن تكون شيئاً جديداً وغريبا ، فتزعزعت الروابط القديمة ، واجتثت من الحضارة التى كانت تنتمى إليها فى الأصل ، وفقدت ثقتها فى القديم ، ولم تجد عوضا عنها فى الجديد فكانت عاقبة ذلك خواء لا خير فيه ولا جدوى منه ، أما مصير فتقف فى ملتقى الحياة الشرقية والغربية ، ووصلت إلى مرحلة يستحيل عليها فيها — لو أرادت — أن تقلب أوضاع التاريخ

وتفصل التيارين بعضهما عن بعض ، وكل ما يبتغى هو ألا يتصارع التياران سواء فى الذهن الإنسانى أو فى دنيا الواقع ، وعسى أن يشقا طريقهما متآخيين بما يعود على كليهما بالخير ، فإذا اتحدا أصاب حياة أعظم رخاء وأكثر عمقاً وأوفر طمأنينة ، لكن ليس معنى هذا أن يبتلع أحدهما الآخر أو أن يفقد كلاهما خواصه الذاتية ، بل الواجب أن تكون هناك تعديلات طفيفة إذا شئنا أن تظل الحياة كما هى ، أما تطرف كليهما إلى الحد الذى رأيناه فشر لا فائدة فيه ، كما أن إثارة العداء الشديد بينهما ستؤدى حتماً إلى انهيارهما معاً ، وتكون التطورات التى تنجم عن ذلك أبعد مدى مما نتصور ، أعنى أنها تكون ثورية إن لم تكن هدامة ، هذا بينما يؤدى اتباع سياسة التغير المعتدلة — التى تتناسب ومجريات العالم الحديث — إلى اقتباس كل ما فى الماضى من خير ، وتتسم دنيانا اليوم بأنها دنيا تطور سريع جداً ، وإن لم يتبادل هذا التطور الأمور الأساسية بل يتلخص فى أنه نظرة سطحية ترى أن جميع التغيرات تسير فى سلم التقدم ، مع أن « التوقف عن التغير هو التوقف عن الحياة نفسها » كما قال فرويد ، وسواء أكنا نؤيد هذا الرأى أم ننكره إلا أن الواقع أن الحياة تجرفنا جميعاً إلى غد وليد جديد ، كما أن سير الحوادث يرغم الناس على أن يفكروا بأساليب جديدة كما هو الحال الآن حيثما تجد أصغر القرى نفسها مرغمة على التفكير فى أمور المجتمع الإنسانى بأكمله ، وفى مثل أزمنة التغيرات القوية هذه يكون من الضرورى لنا ألا نشعر بأن شيئاً من القيم الحقيقية قد امحى ، وأن ندرك أننا نجنى خيرات التقدم ونستغلها فى حياتنا اليومية ، وعلى الرغم مما يبدو على هذا القول من الغموض ، إلا أنه ينبغى أن يكون الحجر الأساسى الذى ترتكز عليه الحركة التربوية .

إن ما أحدثته الأفكار الغربية من انقلاب فى علوم الطب والصحة والنفس وما شاكلها لينبغى أن يستغل لخير الحياة فى هذا القطر ويجب إدخاله فى تربيتنا ، وأن نمزج بينه وبين الحياة والثقافة المصريتين ، ولا سبيل لهذا التعميم عن غير طريق المدارس والمعاهد فهى طريقه الطبيعى الكامل ، وكذلك بواسطة مجهودات الأشخاص ونشاط الصحافة والإذاعة ، ففى مكنة هذه كلها إحداث شىء من التغير لاسيما فى الأمور الظاهرية ، وليس معنى ذلك أنه يجب أن تصبح مصر أمة غربية ، فتصبغ فنها ودينها وأدبها وموسيقاها وكل شىء فى حياتها بهذه الصبغة ، وإلا كان ذلك طعناً للأمة فى صميمها ، وحتم علينا أن نشير إلى أنه قد تهيأ وجود أداة تراقب تأثير الغرب على الشرق وتنظمه فى حينه لأدى ذلك إلى التفاهم وإلى استبقاء كل ماهو جليل الخطر فى الشرق ، وأشعر أن هناك بعض نواح خاصة فى الأسلوب الغربى لم يكن ثمت رغبة فيها أو حاجة إليها ، ثم أزيلت — هذه النواحى الخاصة — بخير الطرق ، وهذا وحده يبين لنا الحاجة القصوى إلى شىء من الرقابة ، كما أنه لو اتبعت الحكمة فى إدخال بعض النواحى الأخرى من المعرفة الحديثة لكان لذلك أعظم قيمة ، فجل الهندسة الحديثة غربى الأصل على الرغم من أننا لو رجعنا إلى الوراء لوجدناها تدين كثيراً إلى الحساب العربى ؛ كما أن مستشفياتنا ومدارسنا الطبية ليست سوى تعبير صريح للعلوم الطبية الغربية التى تدين بعض الشىء إلى الفكر الشرقى القديم ، أما نسبة الوفيات بين الأطفال (وهى نسبة مرتفعة جداً فى مصر) فقليلة جداً فى البلدان التى أخذت بدراسة الحضانة دراسة علمية وعنيت بها ، وليس ثمت حاجة للبرهنة على أن قرانا ومدننا فى مسيس الحاجة إلى أمثال تلك المؤسسات العلمية ، كما تجد أن روح البحث والتنقيب العلمى القائمة على قواعد غربية لمستعملة فى محيط الفن بقصد كشف كنوز مصر القديمة ، وحفظها من العبث ، هذا فى الوقت الذى أدى فيه الباحثون الغربيون كثيراً من الخدمات فى سبيل تفسير المخطوطات المتعلقة بالمسائل والدراسات الإسلامية ، وفى جمعهم مواضيع الفن العربى وترتيبها ، كذلك كان للغرب أثر غير منكور فى ميدان الرياضة ، ويكفى أن يشاهد المرء ثلة من الأولاد المصريين وهم يلعبون كرة القدم أو كرة السلة ليشعر تماماً مقدار النقص العظيم فى كل نظام تربوى يهمل أمثال هذه النواحى من النشاط ، كما أن ممارسة الطفل لهذه الألعاب لم تخرجه عن مصريته ، كما أنه لا يمكن أن نطعن فى مقدرة مدرس لأنه تربى فى انجلترا أو فرنسا ، وكل هذه الأمثلة تشير إلى ذلك الاتجاه الجديد ، وتوضح ضرورة تشجيع هذين النوعين من الثقافة ، ولا يقصد من وراء ذلك أن يحل أحدهما محل الآخر ، بل المقصود أن يتعاونا معاً فى سبيل انتظام الحياة والانتعاش والتقدم الطبيعى ، وذلك خير لكليهما

حسن عيسى